سلسلة نساء النبى ﷺ
(١٢)

مِصْرِيَّةٌ فِى بَيْتِ النَّبِى ﷺ
مَارِيَةُ بِنْتُ شَمْعُون

رضى الله عنها

تأليف
محمد محمود القاضى

الطبعة الأولى للناشر
١٤٢٧هـ - ٢٠٠٦م

رقم الإيداع: ٢٠٠٥/١٥٦٢٢
الترقيم الدولي: I.S.B.N
977-265-657-4

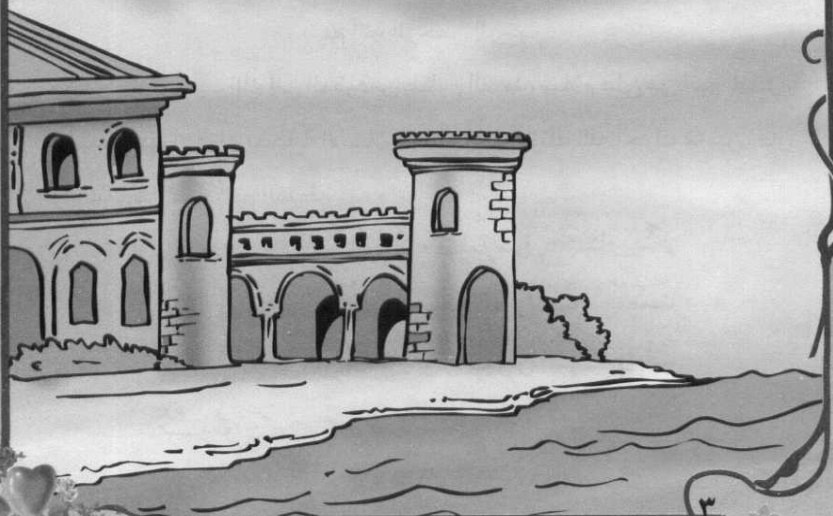
دار التوزيع والنشر الإسلامية
مصر - القاهرة - السيدة زينب ص.ب ١٦٣٦
٢٥١ش بور سعيد ت:٣٩٠٠٥٧٢ - فاكس: ٣٩٣١٤٧٥
مكتبة السيدة : ٨ ميدان السيدة زينب ت: ٣٩١١٩٦١
www.eldaawa.com
email:info@eldaawa.com

فى قصر المقوقس بالإسكندرية

لم يكن يمر يوم من الأيام دون أن يأتى إلى قصر المقوقس عظيم مصر رسول أو أكثر من أماكن متعددة تربطها بمصر علاقات ومعاملات.. ولم يكن أحد ممن فى القصر يهتم بمثل هذه الرسائل إلا من ترتبط أعمالهم بها.. حتى جاء يوم من الأيام أقبل فيه رجل من جزيرة العرب يحمل معه رسالة من رجل عظيم الشأن فى الجزيرة العربية اسمه محمد بن عبدالله يقال عنه: إنه رسول الله.. فقد شدت هذه الرسالة انتباه الجميع وحظيت باهتمامهم.. وسرعان ما انتشر خبرها بين سكان القصر جميعاً، السادة والعبيد والجوارى..

فما هو يا ترى سر الاهتمام بهذه الرسالة؟

لقد كان صاحب هذه الرسالة هو محمد رسول الله ﷺ، الذى أرسله ربه رحمة للعالمين وجعله خاتم الأنبياء والمرسلين، وكان هذا الأمر وحده جديراً بالتوقف



عنده، فقد كان الروم ومعهم عدد كبير من أهل مصر على ملَّة نبى الله عيسى -عليه السلام-.. وكانوا يدركون تمامًا معنى النبوة وحقيقتها..

كما أن هناك أمرًا آخر كان جميع من فى قصر المقوقس على علم به وهو أن هذا النبى العربى ﷺ قد بعث برسالة مماثلة لهرقل عظيم الروم يدعوه فيها إلى الإسلام، وكاد هرقل أن يسلم بعد أن قرأ رسالة النبى محمد ﷺ إليه لولا خوفه على نفسه وملكه من قومه.. كما أن هذا النبى أرسل برسائل أخرى إلى مختلف ملوك ورؤساء العالم يدعوهم فيها إلى الإسلام.. فأى رجل هذا الذى يخاطب الملوك والرؤساء بهذه الجرأة وهذا الثبات..

والأمر الثالث الذى جذب اهتمام الجميع يتعلق بمضمون رسالة هذا النبى إلى المقوقس، وشخصية حاملها، فحامل الرسالة هو الصحابى الجليل حاطب بن أبى بلتعة وكان معروفا بحكمته وبلاغته وحسن منطقه وقوة حجته، أما مضمونها فهو:

بسم الله الرحمن الرحيم

من محمد بن عبد الله إلى المقوقس عظيم القبط، سلام على من اتَّبع الهدى. أما بعد فإنى أدعوك بدعاية الإسلام، أسلم تسلم يؤتك الله أجرك مرتين. فإن توليت فإنما عليك إثم القبط.

﴿ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾ [آل عمران: ٦٤]

هذه هى الأسباب التى جعلت جميع طوائف القصر تهتم بالرسالة، وجعلتهم فى شوق كبير كذلك إلى معرفة جواب الملك عليها .. وخاصة بعد أن علموا أن المقوقس لما قرأ الرسالة طواها فى عناية وتوقير ثم وضعها فى صندوق صغير من العاج ثم ختمه بختمه، ثم أعطاه لواحدة من جواريه حتى تحتفظ به عندها، وكل هذه علامات تدل على اهتمام المقوقس بالأمر وتقديره واحترامه لمرسلها.

ومكث حاطب بن أبى بلتعة خمسة أيام عند المقوقس، يحظى بالاهتمام والاحترام والتكريم وحسن الضيافة .. وربما دار بينه وبين المقوقس عدة حوارات.. وفى نهاية اليوم الخامس أحضره المقوقس إلى مجلسه.. وطلب منه أن يحدثه عن النبى ووصفه.. فتحدث حاطب عن النبى ﷺ وأحسن الحديث..واستطاع أن يرسم للنبى ﷺ صورة عظيمة فى نفوس القوم جميعاً.. حتى تمنى جميع من فى القصر أن يروا رسول الله.. وفكر المقوقس فى الأمر ثم قال لحاطب: قد كنت أعلم أن نبيًّا قد بقى، وكنت أظن أنه يخرج من الشام، وهناك كان مخرج الأنبياء، فأراه قد خرج من أرض العرب، ولكن القبط لا تطاوعنى.. فقد خاف المقوقس أن يفقد مكانته فى قومه..

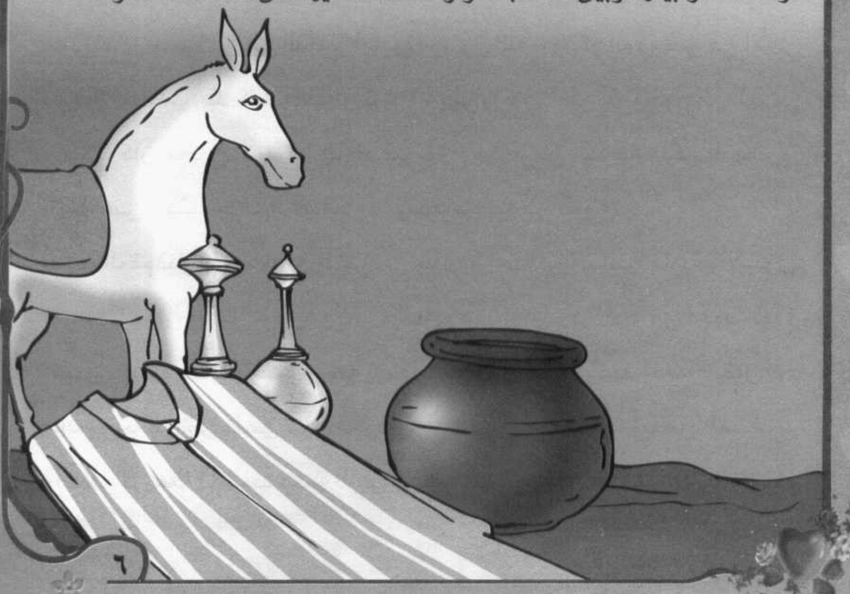
وأمر المقوقس بإحضار جاريتين من جواريه إحداهما تسمى مارية والأخرى تسمى سيرين وهما أختان، وألف مثقال ذهبًا، وعشرين ثوبًا من أجود أنواع الثياب، وبغلة شهباء جميلة قوية تسمى الدلدل، وحمار وعبد خصى يقال له: مأبور، وبعض من عسل بنها، أجود أنواع العسل فى مصر، وبعض المسك.. وأعطى كل هذا لحاطب هدية للنبى محمد ﷺ.. ودعا المقوقس بكاتبه وأملاه

رسالة إلى النبى محمد ﷺ يخبره فيها أنه اطَّلع على رسالته وفهم ما فيها ثم قال فى نهايتها:

... قد أكرمت رسولك وبعثت لك بجاريتين لهما مكان فى القبط عظيم وبكسوة ومطية لتركبها والسلام عليك.

رحلة مارية من مصر إلى المدينة المنورة:

وفى أثناء عودة حاطب إلى المدينة المنورة كانت مارية وأختها تعجب من أشياء يفعلها حاطب فى بعض أوقات الليل والنهار، فقد كانت تراه أحيانًا يغسل بعض أجزاء من جسمه مثل يديه ووجهه ورجليه ويمسح رأسه بالماء، ثم يقبل فى أداء بعض الشعائر مثل الركوع والسجود بخشوع تام، وأحيانًا كان حاطب يترنم بكلام جميل عذب، فكانت مارية وأختها تعجبان مما يفعله حاطب.. ولذلك دار بينها وبين حاطب حوارات تساله فيها عن أفعاله هذه، وما هذا



الكلام الجميل الذى يترنم به بين وقت وآخر على الرغم من أنها لم تفهم معناه.. ووجد حاطب الفرصة مناسبة ليشرح لمارية وأختها مبادئ الإسلام..وخاصة أنه كان على علم ومعرفة بلغة أهل مصر.. وسرعان ما لامس الإيمان قلب مارية وأدركت عظمة هذا الدين فأسلمت هى وأختها لله رب العالمين، وتعلق قلبها بمحبة النبى ﷺ قبل أن تراه.. وتمنت أن تعيش بقية عمرها إلى جواره.. وسكن قلبها بعد أن كانت لوعة فراق وطنها وأهلها تنغص عليها حياتها..

مارية فى المدينة :

ووصل حاطب إلى المدينة بعد رحلة طويلة.. وسلم هدية المقوقس للرسول ﷺ، ثم قرأ عليه الرسالة.. فقال ﷺ: «ضن الخبيث بملكه»، واتخذ الرسول ﷺ من مارية جارية له، وأعطى أختها سيرين لصاحبه وشاعره حسان بن ثابت رضي الله عنه..

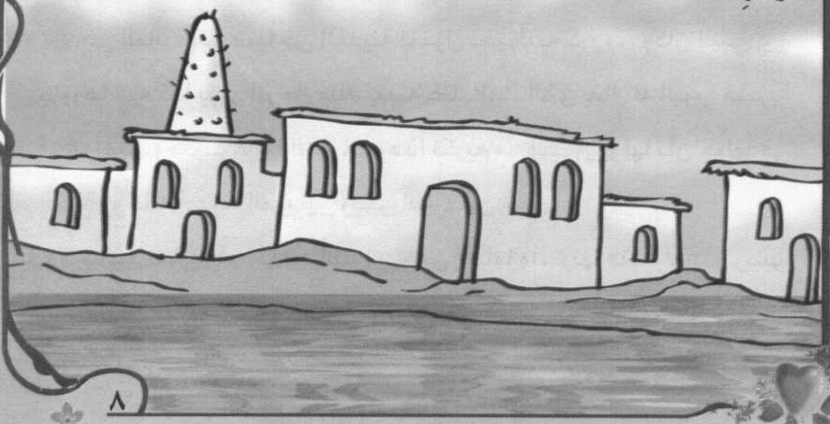
وأنزل الرسول ﷺ مارية بمنزل لحارثة بن النعمان قرب المسجد، وكان يكثر التردد عليها ويمكث عندها طويلاً فى أوقات كثيرة من الليل والنهار، مما أثار غيرة بعض زوجاته منها وخاصة حفصة وعائشة رضى الله عنهما، فنقلها النبى ﷺ فى العالية من ضواحى المدينة بمنزل تحيط به كروم.. وكان النبى ﷺ يزورها فيه كما يزور الرجل ملك يمينه عند الماء الذى يقال له اليوم: مشربة أم إبراهيم، وضرب عليها الحجاب وهذا تكريم من النبى ﷺ لها بأن جعلها فى مكانة زوجاته أمهات المؤمنين رضى الله عنهن جميعاً.

ولا شك أن مارية قد حدثت النبى ﷺ عن أصلها وأسرتها فقد ولدت - رضى الله عنها - بقرية غنية من قرى صعيد مصر تدعى « حفن " من كورة أنصنا

الواقعة على الضفة الشرقية للنيل تجاه الأشمونين وهذه القرية الآن بمركز ديرمواس بمحافظة المنيا، وكان أبوها نصرانيًا واسمه شمعون وأمها نصرانية رومية.. ولاشك كذلك أن الرسول ﷺ قد حدثها عن هاجر المصرية التى أهداها ملك مصر لسارة زوجة الخليل إبراهيم فأهدتها سارة لزوجها فأعتقها وتزوجها وأنجبت له نبى الله إسماعيل -عليه السلام-..

مكانتها عند رسول الله ﷺ:

لقد حظيت السيدة مارية بحب رسول الله ﷺ حتى أن أم المؤمنين عائشة كانت تغار منها.. ففى طبقات ابن سعد عن عائشة - رضى الله عنها - قالت: ما غرت على امرأة إلا دون ما غرت على مارية وذلك أنها جميلة من النساء دعجة (شديدة سواد العين مع بياضها وهذا من علامة الجمال)، فأعجب بها رسول الله ﷺ وكان أنزلها أول ما قدم بها فى بيت الحارثة بن النعمان وكانت جارتنا وكان رسول الله ﷺ عامة النهار عندها حتى فرغنا لها.. فجزعت فحولها إلى العالية، وكان يختلف إليها، وكان ذلك أشد علينا، ثم رزقه الله منها الولد وحُرِمْناه منه .



ويروى أن النبى ﷺ خلا بمارية ذات يوم فى بيت حفصة بنت عمر -رضى الله عنها-، فخرج النبي ﷺ وهي قاعدة على بابه فقالت: يا رسول الله، في بيتي وفي يومي. فقال النبي ﷺ: « هي علي حرام فأمسكي عني» قالت: لا أقبل دون أن تحلف لي. قال: «والله لا أمسها أبدًا».. وفى ذلك نزل قول الله تعالى:

﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَاجِكَ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ [التحريم: ١].

وبلغ من قدرها أن رسول الله ﷺ أوصى بها وبأهل مصر جميعًا خيرًا بعد مماته فقال: « إنكم ستفتحون مصر وهى أرض يسمى فيها القيراط فإذا فتحتموها فأحسنوا إلى أهلها فإن لهم ذمة ورحمًا» (رواه مسلم).

ولولا أن الله تعالى نهى رسول الله ﷺ أن يتزوج بعد السيدة ميمونة فى قوله تعالى:

﴿ لَا يَحِلُّ لَكَ النِّسَاءُ مِنْ بَعْدُ وَلَا أَنْ تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَاجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ رَقِيبًا ﴾ [الأحزاب: ٥٢]

لأعتق رسول الله ﷺ السيدة مارية وتزوجها ولكنه بعد نزول هذه الآية كان ﷺ يطؤها بملك اليمين.

حمل مارية بإبراهيم بن الرسول ﷺ:

وبعد فترة قضتها مارية عند رسول الله ﷺ انطلقت فى أرجاء المدينة بشرى عظيمة، فقد حملت مارية -رضى الله عنها-، وفرح الرسول ﷺ بهذا الخبر ..

وعادت ذكريات خليل الله إبراهيم وهو الشيخ الكبير عندما تزوج من هاجر فرزقه الله تعالى منها بإسماعيل تلوح أمام خاطر النبى ﷺ ومارية.. فقد كان رسول الله ﷺ فى ذلك الوقت على رأس الستين من عمره ومات ولده ولم يبق منهم إلا فاطمة -رضى الله عنها-.

محنة وبراءة:

لما أحست مارية بالحمل اتهمها المنافقون فى العبد مأبور الذى كان المقوقس قد أهداه أيضًا للنبى ﷺ، فقد كان مأبور يتردد عليها كثيرًا.. فأرسل رسول الله ﷺ على بن أبى طالب ليقتله، فقال علىّ : يا رسول الله أكون كالسِّكة المُحماة (حديدة المحراث، ويقصد السرعة فى تنفيذ أمر الرسول ﷺ) إذا أحميت فى النار فهى تكون أسرع غورًا فى الأرض، أو الشاهد يرى ما لا يرى الغائب؟ (ويقصد هنا ألا يتعجل حتى يتأكد من حقيقة هذا الافتراء) فقال ﷺ: «بل الشاهد يرى ما لا يرى الغائب». فذهب علىّ إليه ليقتله فرآه مجبوبًا (ليس له ذكر، ومن ثم لا رغبة له فى النساء) فعاد إلى رسول الله ﷺ فقال: «إنه لمجبوب». ولقد فرح رسول الله ﷺ بذلك وجاءه جبريل -عليه السلام- فقال : السلام عليكم يا أبا إبراهيم. فاطمأن رسول الله ﷺ.

ولادة إبراهيم:

وولدت السيدة مارية إبراهيم وكانت قابلتها (المولدة) سلمى أم رافع مولاة رسول الله ﷺ فجاء زوجها أبو رافع إلى رسول الله ﷺ فبشره بإبراهيم فوهب له عبداً وكان ذلك فى ذى الحجة سنة ثمان من الهجرة، وكان الرسول ﷺ قد سماه بإبراهيم تيمناً باسم أبيه خليل الرحمن إبراهيم -عليه السلام.

وكانت ولادة مارية لإبراهيم سبباً فى عتقها، قال ابن عباس: لما ولدت أم إبراهيم قال ﷺ: « أعتقها ولدها » . وكان ذلك سبباً أن تعتق الإماء إذا ولدت من سيدها فقد قال ﷺ: «أيما أمة ولدت من سيدها فإنها حرة إذا مات إلا أن يعتقها قبل موته» .

لقد ارتفعت مارية بولادتها إبراهيم فى عين النبى ﷺ إلى مكانة سمت بها عن مقام مواليه إلى مقام أزواجه، وزادتها إلى ذلك عنده حظوة ومنه قرباً.

وخرج رسول الله ﷺ بابنه إبراهيم واختار له مرضعاً هى « أم سيف » وجعل فى حيازتها سبعاً من الماعز ترضعه لبنها .. وتصدق على المساكين، فلما كان اليوم السابع لميلاد إبراهيم عقَّ عنه رسول الله ﷺ كبشاً وحلق رأسه وتصدق بوزن شعره وَرِقا (فضة) على المساكين وقال لصحابته :

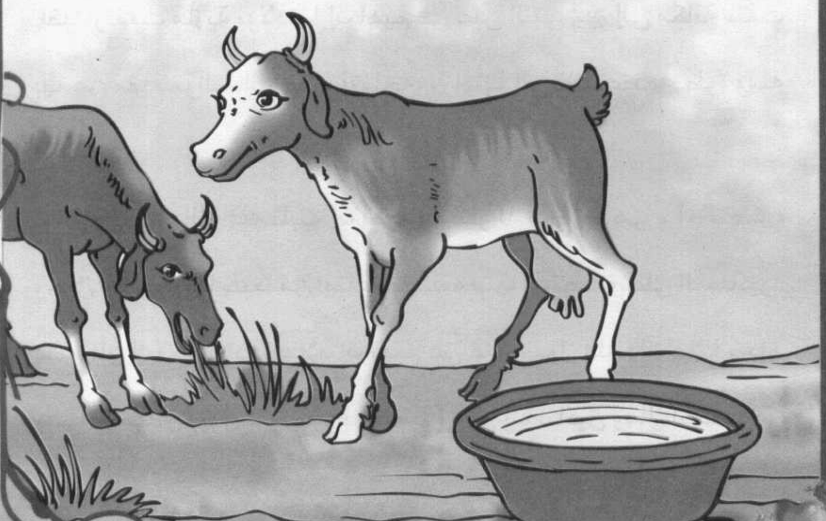
« استوصوا بالقبط خيرًا فإن لهم ذمة ورحمًا » .

وقد فرحت السيدة مارية فرحًا شديدًا بهذا المولود الذى أدخل الفرح والبشر على رسول الله ﷺ بعد فقد سائر ولده ﷺ إلا فاطمة - رضى الله عنها وأرضاها -

وكان الرسول ﷺ يمر كل يوم بدار مارية ليراه وليزداد أنسًا بابتسامة الطفل البريئة الطاهرة، ومسرة بنموه وجماله.

وفاة إبراهيم بن رسول الله ﷺ:

ولم تدم هذه الفرحة طويلاً ولم تطل حياة إبراهيم فما إن بلغ ستة عشر شهرًا حتى توفاه الله تعالى وحزن رسول الله ﷺعلى موته حزنًا شديدًا،



ودمعت عيناه رحمة له.. فتعجب الصحابة من ذلك وقالوا: يا رسول الله، تبكي وأنت رسول الله!! قال: إنما أنا بشر، تدمع العين، ويخشع القلب، ولا نقول ما يسخط الرب، والله يا إبراهيم إنا بك لمحزونون..

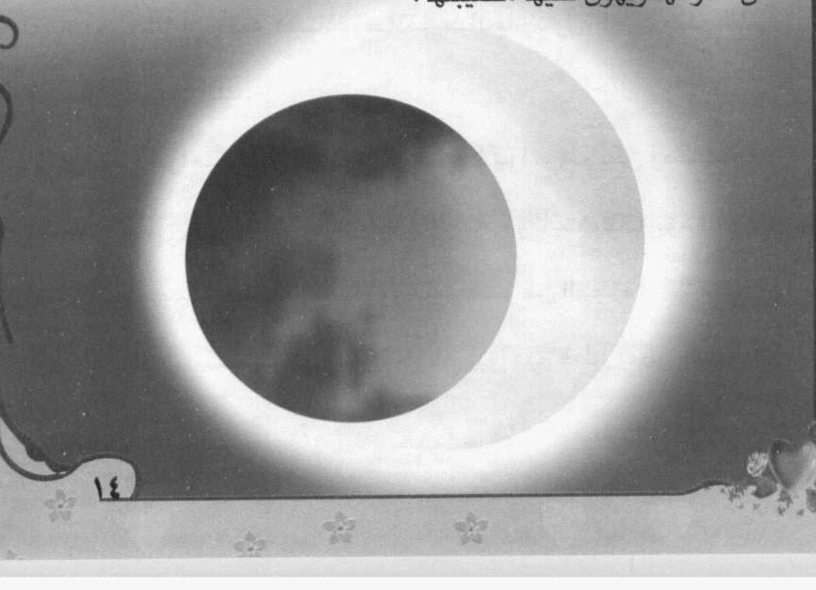
وقام الفضل بن عباس بتغسيل إبراهيم.. ورسول الله ﷺ والعباس جالسان.. ثم صلى الرسول ﷺ على ابنه إبراهيم وخلفه صحابته الأبرار الأطهار.. ثم حمل إبراهيم إلى قبره بالبقيع.. فوقف رسول الله ﷺ على شفير القبر والعباس جالس إلى جنبه، ونزل في حفرته الفضل بن عباس وأسامة بن زيد.. وبعد الفراغ من دفنه رأى رسول الله ﷺ فرجة في الطين الذى يسد القبر.. فأمر بها أن تسد جيدًا.. فقيل لرسول الله: أنه لا ضرر منها.. فقال ﷺ: "أما إنها لا تضر ولا تنفع.. ولكن تقر عين الحى..وإن العبد إذا عمل عملاً أحب الله أن يتقنه" فصلاة وسلامًا عليك يا رسول الله ويا معلم الناس فى سرائك وضرائك.

وكان عمر إبراهيم حين توفى ستة عشر شهرًا.. ولم تكن رضاعته قد اكتملت، فقال ﷺ: «تمام رضاعه فى الجنة»، وكانت وفاته يوم الثلاثاء لعشر ليال مضت من شهر ربيع الأول سنة عشر من الهجرة.

وقد حدث أن انكسفت الشمس يوم وفاة إبراهيم فظن بعض الناس أن

هذا الأمر قد حدث لموت إبراهيم، ولكن الرسول ﷺ لم يفته وهو فى شدة الحزن على فقد ولده أن يصحح اعتقاد الناس فى أمر خاطئ فهو المعلم الهادى، فخرج رسول الله ﷺ حين سمع ذلك فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: أما بعد، أيها الناس، إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله لا ينكسفان لموت أحد ولا لحياة أحد، فإذا رأيتم ذلك فافزعوا إلى المساجد.. ودمعت عيناه،

وحزنت مارية أيضًا على فقد ولدها حزنًا شديدًا فقد كانت تتمنى أن تطول حياته حتى يسعد به رسول الله ﷺ. ولقد كان النبى ﷺ رحيمًا بها بعد فقد ولدها فقد كان يكثر من الذهاب إليها والمكث عندها حتى يخفف من أحزانها ويهون عليها مصيبتها.



وفاة الرسول ﷺ:

وسرعان ما تجددت أحزان السيدة مارية.. وفقدت فى هذه المرة أغلى ما عندها فى هذه الدنيا وهو رسول الله ﷺ.. فلم تطل حياة رسول الله ﷺ بعد وفاة ابنه إبراهيم فقد توفى رسول الله ﷺ فى ربيع الأول فى عام ١١ هـ.. ومنذ ذلك الوقت لازمت السيدة مارية بيتها وشغلت نفسها فى العبادة والطاعة زاهدة فى الدنيا وزينتها تنتظر لحظة فراق الدنيا وملاقاة الأحبة محمد ﷺ وابنها الحبيب إبراهيم فى جنات النعيم..

مكانة السيدة مارية عند صحابة النبى ﷺ:

كان أبو بكر الصديق -رضى الله عنه- قد ألزم نفسه بالنفقة على مارية - رضى الله عنها- بعد رسول الله ﷺ، وواصل عمر بن الخطاب -رضى الله عنه- كذلك نفقته عليها بعد وفاة أبى بكر الصديق - رضى الله عنه-.

وكان أصحاب رسول الله ﷺ جميعًا يجلون السيدة مارية ويكرمونها ويكرمون أهلها بمصر.. ولما فتحت مصر فى عهد الخليفة عمر بن الخطاب على يد عمرو بن العاص كان الصحابة الفاتحون قمة فى السماحة والحب والمعاملة الطيبة لإخوانهم أهل مصر أصهار رسول الله ﷺ.

وبعد فتح مصر ذهب عبادة بن الصامت إلى قرية مارية - رضى الله عنها وأرضاها - قرية « حفن » ، وسأل عن بيت أسرتها وأقام عليه مسجدًا .

وفى عهد الخليفة الأموى معاوية بن أبى سفيان خاطبه الحسن بن علىّ أن يضع الخراج عن أهل «حفن» حفظًا لوصية رسول الله ﷺ.

وفاة السيدة مارية:

عاشت السيدة مارية -رضى الله عنها- بعد رسول الله ﷺ خمس سنوات، وفى شهر المحرم من السنة السادسة عشرة للهجرة لحقت السيدة مارية أم إبراهيم بالرفيق الأعلى.. وكانت وفاتها فى خلافة عمر بن الخطاب -رضى الله عنه- ويومها جمع عمر الناس لشهود جنازتها، وصلى عليها إمامًا بالناس.. ودفنها بالبقيع -رضى الله عنها- وأرضاها، وأسكنها فسيح جناته.

